أي جديد في الساحة، اليوم، يثير مخاوف التوطين أكثر من أي وقت مضى؟ وهل يتنبىء المستقبل القريب عن امكان حدوث ذلك؟

في استشراف المستقبل، يجدر، بداية، تصوّر المستقبل «المحتوم» أو «المفروض»، تمهيداً للتخطيط من أجل المستقبل المطلوب صنعه؛ وليست مهمة تصوّر المستقبل المحتوم هذا صعبة بالنسبة الى موضوعنا، ما دام مرتبطاً، بصورة جذرية، بالمفاوضات الجارية، حالياً، تحت المظلة الاميركية بين اسرائيل من جهة ودول الطوق العربية من جهة أخرى. فالاجواء السياسية الدولية لا تترك مجالاً للاستنتاج بأن حل مشكلة اللاجئين المعروفين بلاجئي العام ١٩٤٨ يمكن ان يتمّ بناء على قرار العودة الرقم ١٩٤ الذي أقرّته الامم المتحدة العام ١٩٤٨، والذي أقرّته دول العالم باستثناء اسرائيل، وإنْ كان الرفض الاسرائيلي لهذا القرار استمر طوال أربعين عاماً في ظل صراع الجبارين، فمن باب أولى ان يتشبّث الاسرائيليون أكثر بموقفهم العنصري الرافض هذا، في عهد الهيمنة الاميركية.

ودون دخول في تفاصيل المفاوضات الجارية، نشير، فقط، الى ان جميع القضايا بين اسرائيل ودول الطوق، من احتلال الاراضي الى الامن الى الحكم الذاتي الى المياه، الى سواها، قضايا يجرى أو سوف يجرى الحوار بشأنها، باستثناء موضوع لا يسمح بالحديث عنه، اصلاً، وهو مصير اللاجئين الفلسطينيين. ان هذا التغييب الكلي للموضوع هو الدلالة على وجود احتمال واحد، ألا وهو: فرض الأمر الواقع، وهذا يعني التوطين.

وليس من داعٍ للقول، ان هذا التوطين لا يرفضه الفلسطينيون واللبنانيون وحدهم، بل يرفضه العرب، وذلك حبّاً بفلسطين وقضيتها المقدسة؛ فلا قضية هناك، إنْ لم يكن هناك من شعب لهذه القضية.

واما في حال الرضوخ العربي للتوطين، فهذا مؤداه ان عصر الهيمنة الاسرائيلية في المنطقة، لا عصر السلام، قد ابتدأ حقاً. واما هؤلاء الذين يحلمون بسلام حقيقي، من عرب أو من يهود، فهم لن يجدوه؛ اذ لا سلام هناك مع الهيمنة، ولا سلام هناك مع القهر والظلم الفادح.

ولتكن لنا من التاريخ القريب عبرة. فلو عدنا الى أحداث النكبة وتطوراتها، لتذكرنا جيداً ان العرب، جميعاً، رفضوا بكل ما أوتوا من بلاغة وحماسة تقسيم فلسطين وقيام اسرائيل، كما أنهم خاضوا حرباً مشتركة باسم الجامعة العربية، على أرض فلسطين. وبغض النظر عن خسارة الحرب في العام ١٩٤٨، فالحق، ان الحكومات العربية امتلكت الجرأة، يومذاك، لتخوض حرباً، ولكنها لم تمتلك ذرة شجاعة كي تقول لشعوبها: اسرائيل هذه مؤامرة استعمارية دولية كبرى مفروضة علينا، ونحن ليس باستطاعتنا الوقوف في وجه المؤامرة!

هل نتوقع اليوم صوتاً عربياً يقول: سياسة التوطين مؤامرة اميركية ـ صهيونية كبرى مفروضة علينا، وليس باستطاعتنا الوقوف في وجه المؤامرة؟

وهكذا، إنْ توصلنا الى ان هذا هو المستقبل «المحتوم»، فما هو المستقبل «المطلوب صنعه»، ضمن إطار الممكن، لا إطار التمنيات؟ كيف نبني مستقبلاً لا ينتمي الى دائرة ردود الافعال، دون غيرها؟ بل كيف ندخل دائرة الافعال المبتدأة، والارادة؟

ان تاريخ العرب المعاصر الذي يفوق تعداد هزائمه واحباطاته تعداد انتصاراته بنسبة عالية، يجعل للعنصر النفسي الاولوية على الحسابات المستقبلية المجردة. وفي موضوع كهذا، يمس